المنشآت المائية بمدينة سلا (رقاد)

ملاحظات أولية حول المسجد الجامع

الأستاذ علي حملاوي

المنشآت الدينية بمدينة سدراته (ورقلة)

ملاحظات أولية حول المسجد الجامع

الأستاذ علي حملاوي

في إطار المشروع العلمي الذي يهدف إلى الكشف عن أطلال مدينة سدراته الأثرية بولاية ورقلة، بدأت فرقة من معهد الآثار مكونة من أساتذة وطلبة، بالحفر حول أنقاض بعض المباني خلال شهري أبريل و ماي المنصرمين، وقد تمكنت الفرقة من إزاحة الرمال على جزء كبير من معلم نعتقد أنه المسجد الذي تحدث عنه كل من تعاقب على المدينة رحالة أم باحثون، وهو ما يوحي به مخططه العام وتقسيماته الداخلية وما تحمله من سمات العمارة الدينية، ويمثل هذا المسجد، في أغلب الظن جامع المدينة نظرا لموقعه الاستراتيجي حيث يشغل 148.02م2، علاوة على أن هذا المكان لا يزال يحتفظ بقدسيته لدى الإباضيين إذ يجتمعون بالقرب منه والجدير بالذكر أن جل الباحثين الذين تناولوا المدينة بالبحث لم يتعرضوا بطريقة علمية إلى هذا المبنى رغم أنه يمثل الشاهد الوحيد المعروف للمنشآت الدينية بسدراته[1] بل اكتفوا بتقديمه والإشارة إليه بطريقة عرضية. وقد كان هذا من أهم الدوافع

[1] يتحدث " حون ليتبو " عن وجود مسجد بمدينة سدراته يعرف " بمسجد هود " وقد كان يضم مجموعة من المخطوطات المختلفة المادة، ويضيف صاحب المرجع أن من بين الذين إغترفوا من هذه المؤلفات هو المؤرخ باستشري بكر بن هود بن صالح بن قاسم بن عيسى الذي ألف كتابه سنة 656 هـ / 1257م

نقلا عن مزهودي (مسعود) الإباضية في المغرب الأوسط، نشر جمعية التراث القرارة 1996، ص 37.

التي زادتنا إصرارا على إماطة اللثام عن هذا المنشأ وإخراجه إلـــى الوجـــود ليكون أول معلم من المعالم الدينية بسدراته ترى النور لكـــن إرادتنـــا بـــاءت بالفشل أمام قوة الطبيعة المتمثلة في الرياح العنيفة وارتفاع الكثبان الرملية مـــن جهة، وأمام قلة الإمكانيات المادية والبشرية من جهة ثانية. وهكـــذا أســـفرت المجهودات المبذولة خلال هذه المرحلة من الحفريـــة علـــى كشـــف المحيـــط الداخلي للمبنى، وبعض العناصر المعمارية المغمورة كالسلم والأقواس المطلـــة على الصحن والدعامات وكذا الأجزاء العلوية لسدة الصلاة والصحـــن فـــي انتظار المرحلة القادمة إن شاء الله والتي نتمنى أن تكون أكـــثر إنتاجـــا مـــن سابقتها . يقع هذا الجامع في الناحية الجنوبية للمدينة، والتي يعتقد أنها النـــواة الأولى لمدينة سدراته. يحيط به مجموعة من المباني لا يظـــهر منـــها ســـوى الأجزاء العلوية للجدران، أو حلت محلها أكوام من الحجارة المتواصلة وهـــو لا يبعد كثيرا عن السور العربي للمدينة.

يأخذ المبنى شكلا مستطيلا عمقه أكبر من عرضه، وتقـــدر مقاســـاته الداخلية والأولية بحوالي 13م ×7م (سن1). يحتوي على صحن تبلغ مقاســـاته بحوالي 6.5 م×5 م أي أن عرضه أكبر من عمقه. ومن المحتمل أنه كان يتـــم الدخول إليه عبر باب فتحت في وسط الجدار الشمالي. كما يبدو، مـــن خـــلال ملاحظاتنا، أن مدخله هذا كان يتقدمه رواق فخـــم بـــاب بالزاويـــة الشـــمالية الغربية. وتشغل الزاوية الشمالية الشرقية غرفتان، إحداهما مغطـــاة بقوســـين متقاطعين وجدرانها مكونة بطبقة عصية سميكة خالية من أيـــة زخرفـــة كمـــا بلطت أرضيتها بنفس الصحن بواسطة مدخل يعلوه قوس نصف دائري غـــير منتظم ومتجاوز قليلا وبجانب هذه الغرفة توجد غرفة ثانيـــة مربعـــة الشـــكل تحتوي على درجات تؤدي إلى السطح اعتبرها كل من فوشي ومارغريت قـــلن برشم قاعدة المئذنة[2]. غير أننا نرى أن هذا الحكم سابق لأوانه، خاصة ونحـــن نعلم أن معظم الجوامع الصحراوية العتيقة تخلو من هذا العنصر. فلقـــد كـــان النداء للصلاة يتم من على السطوح والأمثلة على ذلك عديدة.

أما بيت الصلاة والتي لم نتمكن من الوصول إلى أرضيتها أو حتـــى اكتشاف محرابها فعمقها أكبر من عرضها حيث تبلغ مقاســـاتها 8 م × 5.70 م مقسمة إلى ثلاثة أساليب موازية لجدار القبلة.

[2] مارغريت قلن برشم: مشروع لكتاب لم ينشر بعد، ص 4

وتطل على الصحن بواسطة ثلاثة عقود نصف دائرية تتراوح فتحاتـها ما بين 1.10م × 1.12م تحدها من الجهة الغربية آثار باب مسدود .

أما الجدار الثاني فقد فتح به في الوسط باب عادي تقدر فتحته بحوالـي 1 م يقابله بائكة من ثلاثة عقود نصف دائرية متجاوزة ويتقدم هـــذه الأخـيرة جدار القبلة الذي يحتوي بدوره على ثلاثة عقود ترتكز على دعامات أما فـــي الجهة الخارجية لهذا الجدار فيظهر بروز ممتد على معظم طوله ولعله جعـــل لطمس نتوء المحراب.

ولقد كان اتجاه جدار القبلة محل جدال حيث يختلف عن اتجاهات بقيـة جوامع ورقلة غير أن هذه الظاهرة ليست وليدة جامع سدراته فحسب فالعـــالم الإسلامي قد قدم لنا أمثلة على ذلك ومن بينها جامع عقبة بن نافع بـــالقيراون وبعض القبور الإسلامية بجبل نفوسة وجبل عمور[3].

ولقد حافظت الذاكرة الشعبية على مخطط هذا المبنى ، حيـــث تذكـر مارغريت فان برشم أنها استعانت بالمؤرخ الشيخ أعزام الحاج لتحديد موقـــع الجامع وتضيف الباحثة. "أن الشيخ وبعد سيره حوالي 1500 م وقف، وبـــدون تردد، على هذه الربوة وسط كوم من الأحجار مشيرا إنه مكان الجامع وواصل حديثه باعتباره شاهده أثناء طفولته وكان محـــراب وصحـــن تزينـــه أعمـــدة وبوائك، بالإضافة إلى بائكة في الطابق الأعلى، ثم أضاف قائلا: أنه كان يحيط به أزقة مقببة محفوفة بأعمدة تؤدي إلى الجامع وهي إذ ذاك تذكرنـــا بجـــامع سيدي عبد الله المغراوي بتماسين وجامع قصبة مستاوه بتفرت وغيرهـــا مـــن الجوامع العتيقة بالقصور الصحراوية ولقد أشار إلى هذا الجامع مجموعة مـــن الباحثين الأجانب ووصفوه وصفا يكاد يكـــون ســـطحيا، ولذلـــك نلاحـــظ أن المعطيات المقدمة من قبلهم متضاربة أحيانا. في مقدمة هؤلاء الباحثين نذكـــر فيكنون لارجو الذي زار المدينة سنة 1877 م، وتعرف على جامعها وهو فـــي حالة جيدة من الحفظ. ويقول في هذا الصدد[4] يوجد بجنوب المدينة المندثـرة بقايا مسجد مستطيل الشكل تبلغ مقاساته 23 م × 18 م وينقسم إلى قسمين مـــن

[3] J ;Despois ; le Djebel Aonouc ; (Algerie) ; Paris ; PUF :1957 ;P32.

[4] V ; Largeau ; Le Pays de Rirha ; Uuagla ; voyage à Rhabanes ;Paris 1879 ; P187 – 188.

جهة العرض تقدر مقاسات الجزء الأول حوالي 10 م أما القسم الثاني فيبلـغ 13 م. وقد كان هذا الأخير مرتفعا نوعا ما عن الأول ويحمل آثار التبليـــط. كمـــا نلاحظ بقايا أحواض محفورة في الأرض ويتم تزويدها بالمياه بواســـطة قنـــاة تخرج من إحدى زوايا الجدار وهي في حالة جيدة.

كما عثر لارجو على قطعة خصبة تحليها زخـــارف نباتيـــة محـــورة وعناصر هندسية مثلما جرت العادة عليه في زخارف مدينة سدراته.

أما هارولد طاري الذي يعتبر أول باحث قام بحفريـــة حـــول أنقـــاض مدينة سدراته سنة 1881 م فيذكر أنه[5] "استطاع أن يزيل الـــتراب عـــن كـــامل المحيط الداخلي للمبني، ويأخذ هذا الأخير شكلا مستطيلا غير منتظم الأضـــلاع تبلغ مقاساته حوالي 13 م × 10.40م.

ويتكون من ثلاثة صفوف يحتوي كل صف على أربع دعامات يرتكـــز عليها عشرون قبوا تزين مراكز انتقالها زخارف بســـيطة وكتابـــات ويصـــف طاري أيضا " أن جدارن المبنى كانت مغطاة بطبقات من الجص حيث احتـــوت الطبقة الأخيرة ــ المعاصرة للجامع ــ على زخارف ملونة وكتابـــات. كمـــا ألحق بالمسجد مدرسة قرآنية تحلي جدرانها زخارف كتابية " في حين يصـــف بول بلانشي (1898م) المسجد أنه قاعة مربعة الشكل مغطاة بحوالي عشـــرين قبوا تقوم على ست عشرة دعامة، زينت جدرانه بأبواب وهمية ونوافذ تحلـــي أطرها زخارف هندسية بسيطة[6]. لكن بول بلانشي لم يتمكـــن مـــن مواصلـــة العمل نظرا لهشاشة المبنى الذي بدأت بعض أجزائه تتساقط شيئا فشيئا.

وتعتبر الحفرية التي قام بها المهندس فوشي (Faucher) ما بيـــن 1943م – 1944 م من أهم التنقيبات التي جرت حول المسجد ولقد استطاع فوشي مـــن إزاحة الرمال عنه كلية ما عدا الجدار شمالي الشرقي. كما تمكن بـــدوره مـــن وضع مخطط له ورسومات توضيحية لهذا المعلم لكن للأسف الشديد، فإن هـــذه الوثائق لم تنشر بل بقيت حبيسة الأدراج ولا ندري مكان وجودها.

[5]H ;Tany : « Excursion Archeologique dans la vallée de L "Ouedlga ; Revue d"ethnographie t 2 : 1883. PP 21 – 34.

[6]P.Blarchet ; « Les Villes mortes au Sahara : « Atravers le Monde (Suppl ; le Tous du Monde 25 Juin 1898 P204.

ويقدر طول المسجد حسب هذا الباحث بحوالي 16.20م. وهو مغطى بحوالي ستة وثلاثون قبوا. كما اكتشف أيضا في الجدار الجنوبي الغربي صنية يبلغ ارتفاعها حوالي 4.43م أما في الجدار الأخير والذي نعتقد أنه جدار القبلة فقد فتحت به ثلاث صنيات صماءة ومعقودة ما بين ارتفاعها 2.38م. ويصف أيضا أنه عثر على أربعة أعمدة أسطوانية تعلوها تيجان قديمة ما بين جدارين متوازين يبعدان عن بعضهما البعض بحوالي 5 م أو 6 م ويبدو أن العملية تمتد باتجاه جنوب ــ غرب " قد تكون الطريق القبلية التي أشار إليها الشيخ اغزام والمؤدية إلى الجامع. كما تم العثور على مصباح زيتي وقاعدة المتنة في الجدار الشمالي الشرقي وبقايا أدراجها.

أما بالنسبة للباحثة مارغريت، يبدو أنها وقفت هي الأخرى على أطلال هذا المنشأ وحاولت أخذ مقاسات لبعض أجزائه بعد أن أزاحت الرمال عنه[7] وتقول فان برشم أنه تم الكشف عن أربعة أقواس صماء في الجدار الجنوبي وفي القوس الرابع فتحت صنية عرضها 0.45م أما الجدار الجنوبي أما الشرقي (من المحتمل جدار القبلة) تبلغ مقاساته حوالي 17م طولا وأقواس الجدار الجنوبي فتتراوح ما بين 1.50 م و1.55م في حين يقدر عرض باطنها 0.30 م، أما الحنية المقببة في الزاوية الجنوبية فتبلغ 2م وعمقها 1.70م. كما عثرت قان برشم على قاعدة برج مربع طول ضلعه من الداخل 1.45م تحتوي على أربع درجات. تقدر ارتفاع كل درجة حوالي 17 سم أما طولها فحوالي 27 سم.

كانت هذه أهم الملاحظات حول أحد المنشآت الدينية لمدينة سدراتة، وهي لا تعدو أن تكون محاولة لإطلاع ذوي الاختصاص عما تحتفظ به المدينة من كنوز ونحن على يقين بأن ما ستسفر عنه نتائج الحفريات اللاحقة ستزيدنا إطلاعا ومعرفة حل هذا المعلم.

[7] ذكرها مارغريت قان برشم في نفس المرجع السابق، ص 3 و4 و 5.

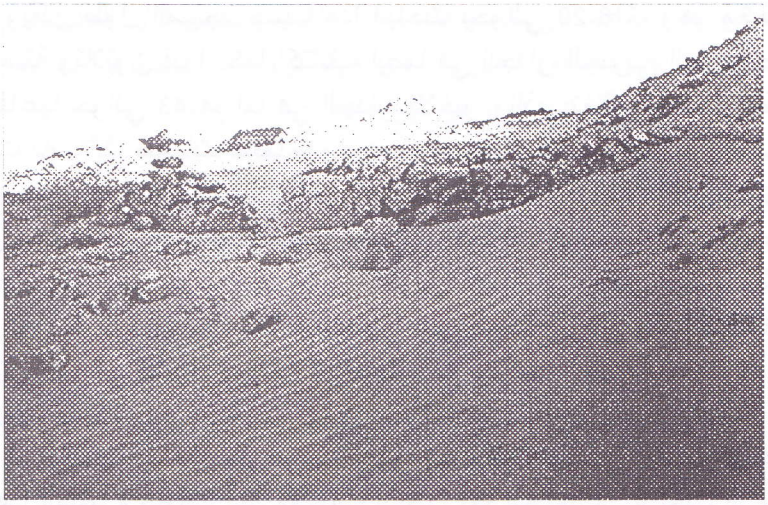

لوحة 1

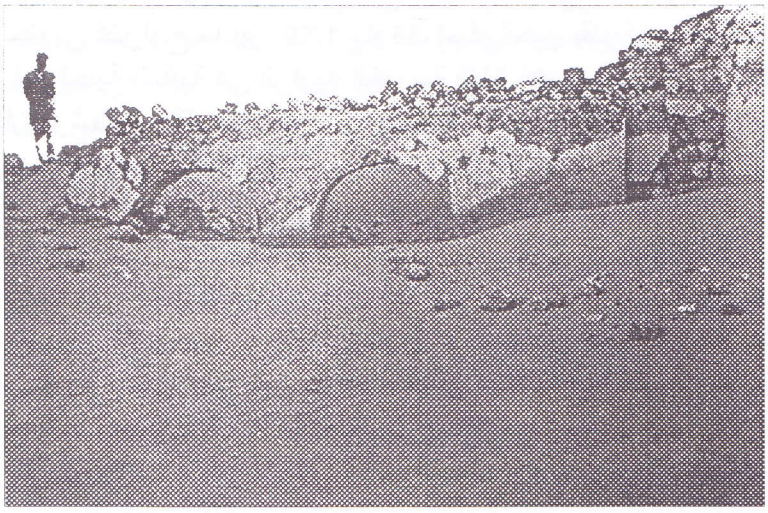

لوحة 2

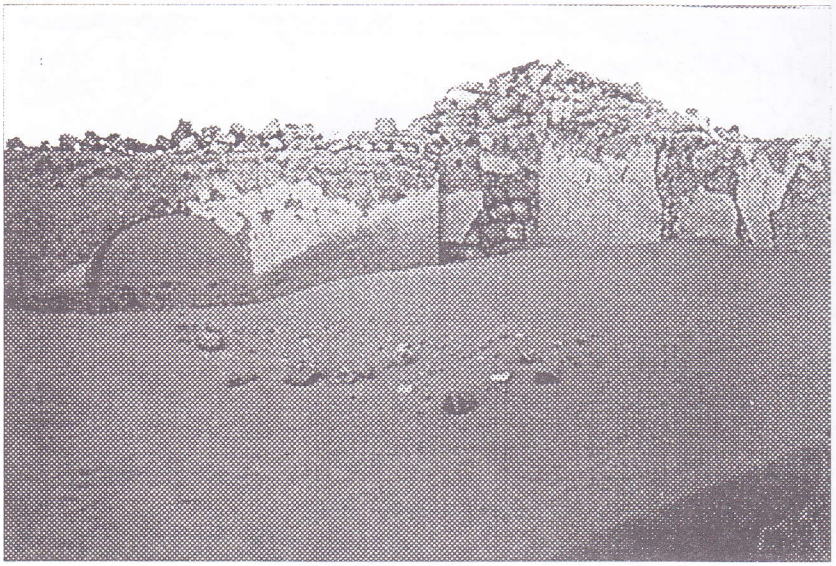

لوحة 3

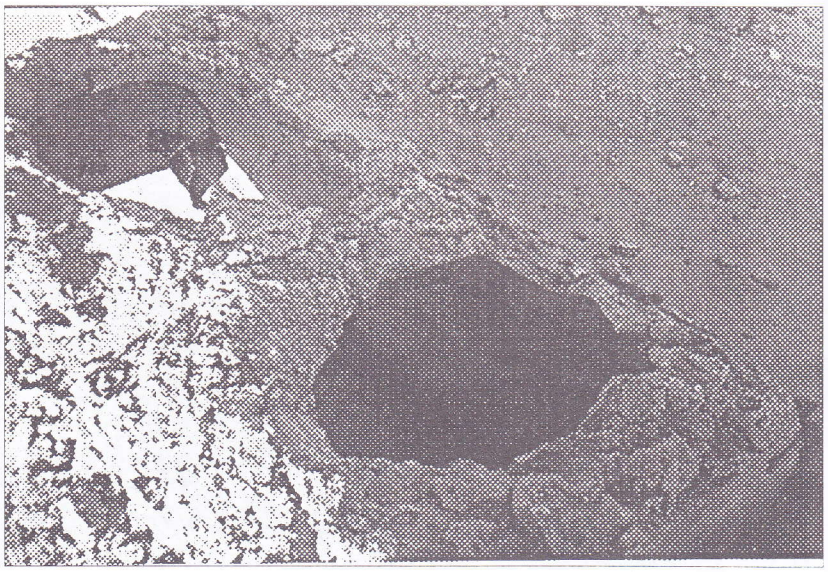

لوحة 4

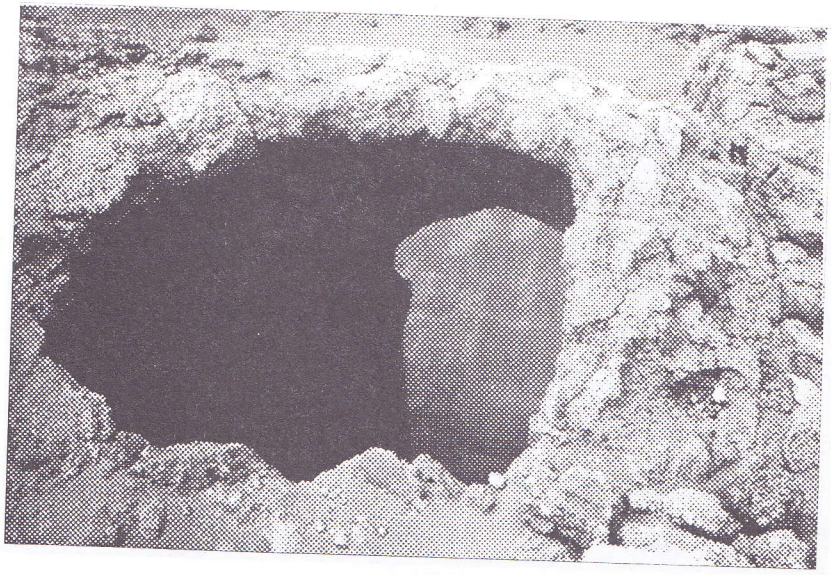

لوحة 5

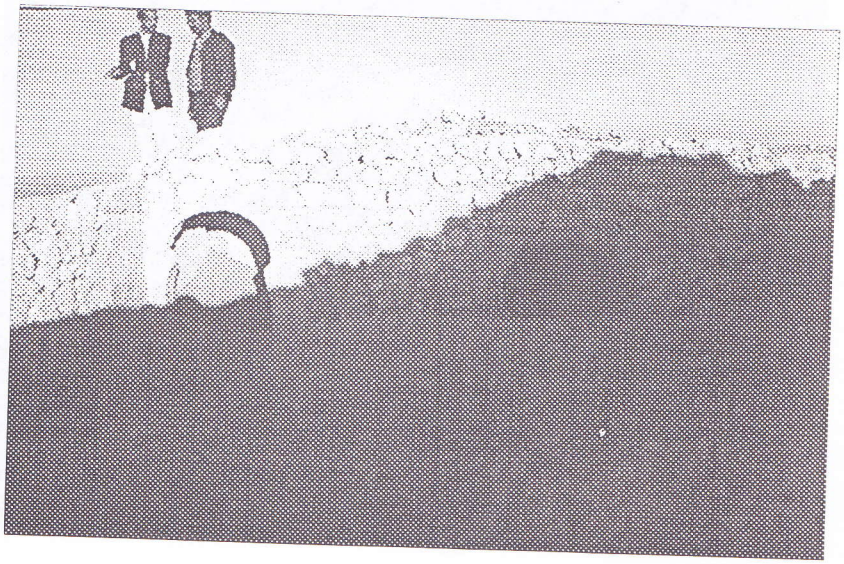

لوحة 6

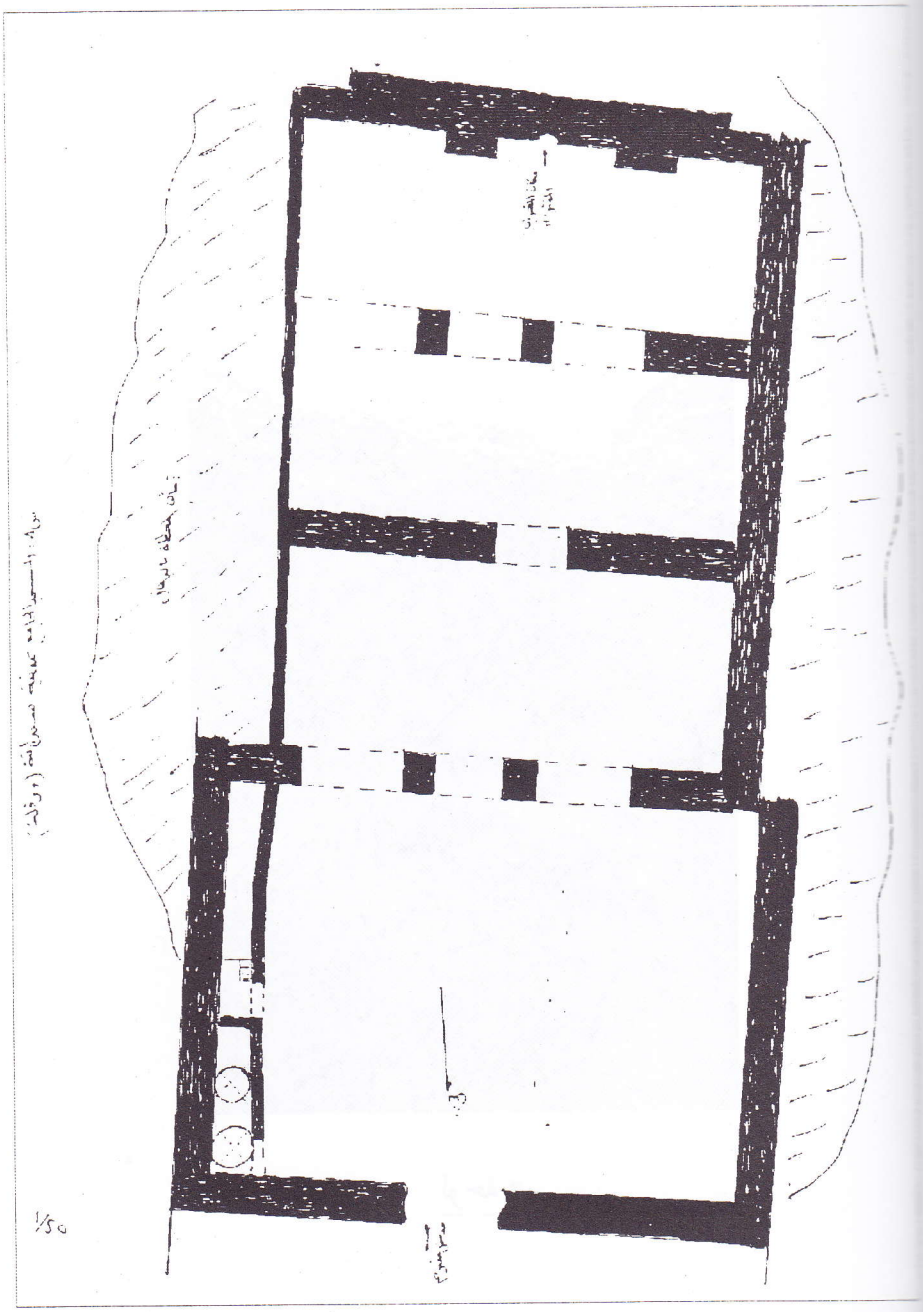

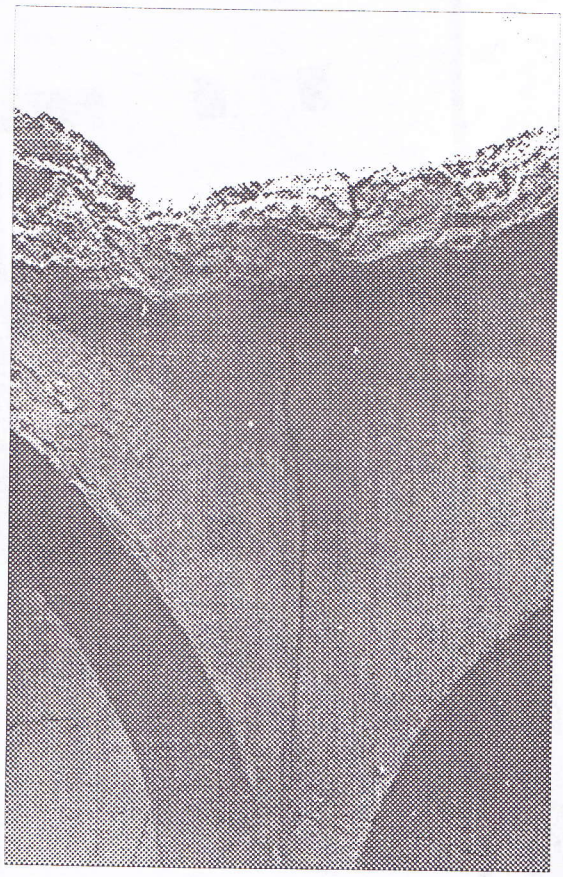

لوحة 7